أعجبني وجهي في المرآة

بقلم الاستاذ صدر الدين احمد

وانتهيت من حلاقة ذقني.. ثم اقبلت على المرآة اتصفح ملامح وجهي فيها ، كأنني قد شعرت بأنني في نجوة من عيون الرقباء .. وانني استطيع ان استشهد المرآة وحدها على مبلغ حظي من محصول القبح والجمال ، اذ كانت هي لا تملك بطبيعتها ان تكذب وتماذق الا اذا جاءتها عواطف متقلبة كعواطف بني آدم .

نظرت الى ملامح وجهي هنيهة طويلة ، وانا كالواثق جزماً بأنني غدوت اجمل مني قبل الحلاقة ، وان جمالي اشرق كالصبح المتلألئ بحيث انني لو انطلقت الى قارعة الطريق فلابد ان استهوي قلوب الخلق واستثير اعجابهم ، وربما لا اعدم نفراً منهم يحيطونني من انفسهم بكل شعائر التملق والاحترام فأضطر ، حينئذ ، ان اهزأ بهم واتدلل عليهم واتكبر ايضاً .

ولكن ، يخيل لي ان من حق الناس ان ينظروا الى جمالي كأنه نعمة من الجنة تسطع في الارض - ليكون نظرهم هذا ، نوعاً من الخشوع للذي ابدع هذا الجمال الفياض ، واكون انا بالضمن كأنني شيء من السماء هبط في الابصار يمتحنها في بقية تصرفاتها ودخائل اهوائها ..

غير اني مع ذلك اكاد اعتقد بأن الجمال الفاتن هو عبء ثقيل على صاحبه ، بل انه لأشد من حالة الضرورة حين تأتي على رغم الانف فتكون غصة لا مندوحة عنها . ولعلني انا بالذات خير دليل على ذلك فلقد اوتيت هذه الشمائل المليحة الدافئة .. فاصبحت معها كالسجين في نطاق البخل بها ، والحذر عليها . ولاشك في ان الجمال اذا صار سبباً لمثل هذا التعذيب فهيهات ان ينعم به صاحبه .. ثم هيهات ان يكون هو الا كالقبح يعذب صاحبه كذلك .

ياويل الناس اذا جعلوا نزواتهم تستحكم في ابصارهم فلم يكبحوا جماحها بقيد العفة والحياء . وماذا ترى يبقى من خصائص الانسانية اذا نزلت عندهم الى الوحشية بخصائصها افلا تكون قد ابدلت فيهم عقل الحشمة بغريزة الشهوة كطبيعة البهائم في الصحراء ؟ وهل تمسخهم الا جنساً يصعد وينزل بين ضعف الفضائل واستبسال الهوى المتوقح ؟ .

اذن ، فماذا اصنع اذا خرجت وحدي الى قارعة الطريق وهنالك اسراب من بنات حواء ... رائحات غاديات في الاسواق المزدحمة ، في الشوارع الفسيحة ، في الازقة الضيقة .. كأنهن الهواء يملأ كل فراغ ، وكأنهن الحمائم تبحث عن اعشاش واوكار ؟ وتالله اني لاتوقع منهن خطراً على مصيري ، وما ادري كيف اتقيه واتحاماه وافلت من عقباه ، اذ ليس من السهل على شاب مثلي وفي مثل جمالي ان يملك قياد نفسه وزمام اخلاقه وعواطف قلبه دائباً وابداً ، ولئن امكنه ان ينقلب طاهراً كالملائكة حيناً من الدهر .. فليس من الممكن ان يصرم حياته كلها كذلك ، خصوصاً وان اكثر بنات حواء ذوات كيد عظيم ، وذوات مكر وغواية واغراء ، وهيهات لي ان انجو من احابيلهن طوال عمري على الاطلاق .

هذا امر واقع لايسعني اخفاء معالمه بأي لون من الوان التشويه والتذويق وانتحال العفاف ! وهل من الضروري ان يكذب الانسان من غير موجب ولا اكراه ؟

ولكن مهلا . . .

فانا لا أبغي ان اباهي العالمين بما أتوهم عندي من الجمال ولا احب ان يعشقوني بعد ماجاوزت سن الثلاثين . وانما .. وانما المرآة هذه ملعونة ، فهي التي القت في خيالي المغرور ان اغازل وجهي في غيب الرقباء والعذال ففعلت . وهأنذا اقول الحق عن نفسي بما قاله الحطيئة عن نفسه .

ارى لي وجها قبح الله شكله فقبّح من وجه وقبّح حامله

ولست ، مع ذلك ، اراني قبيحاً دميما الى حد الايحاش ولا فظيعاً ارعب الناس في الليل اذا صادفوني اتفاقا ، فكل ماهنالك ان أنفي ضخم بالقياس الى ضيق عيوني ، كما وان فمي واسع على العموم فلايغري بالتقبيل غير انني في الواقع ، قانع بنصيبي هذا كل القناعة . وصابر عليه ، فلن اهجوه ولا استشيط منه غيظاً ..

وياما اكثر الوجوه التي تجني على نفسها بجمالها ؟